المحاضرة الثالثة عشر: المنهج الوضعي

1/- معنى الوضعية:

معنى الوضعية "إن الوضعي من الأشياء ما وضعه الله أو ما وضعه الخلق، ويؤكد ليبنتز "هذا المعنى في قوله: أن حقائق الفعل قسمان: قسم يسمّى بالحقائق الأبدية وهي مطلقة وضرورية، أي أنّ معارضتها تفضي إلى التناقض، وقسم يمكننا أن نسميه بالحقائق الوضعية، أي أن معارضتها تفضي إلى التناقض، ونحن ندرك هذه الحقائق بالتجربة، أي بطريقة بعدية، أو بالعقل أي بطريقة قبلية"[1].

والوضعي مقابل للطبيعي فنقول "القانون الوضعي فهو مقابل للقانون الطبيعي"[2].

أما من زاوية المعرفة: "ما هو معطى، ما يقدمه الاختبار على سبي الأمر الواقع، حتى وإن كنا نجهل علّة وجوده، لأن هذا هو الطابع المميّز لكلّ ما لا يتعلق إلا بالقوانين الأساسية المفروضة قديما على الطبيعة من قبل المشيئة الإلهية"[3].

إن مصطلح الوضعية Positivisme مشتق من اللغات اللاتينية من "الايجابي" Positif، العلاقة بينهما معنوية بقدر ماهي لغوية. فالمصطلح قائم على أن التحقق لصحة الفكر عن طريق تجربة الواقع، واتجاه الفكر العرفاني نحوّ العلوم الفيزيائية بوصفها نموذجا لليقين والصحة والدقة، وأخيرا الاعتقاد بأن تقدم المعرفة منوط بذلك الاتجاه.

ومن هنا فإنّ "الوضعية" تعارض كل ميتافيزيقا وكل مذاهب التعالي والمثالية بوصفها أنماطا متخلفة ورجعية من أنماط الفكر، ويعتبر أن المفاهيم غير الوضعية (أو الإيجابية)

---

[1]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل احمد خليلو إشراف أحمد عويدات، المجلد الأول A–G منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001، ص 998.

[2]- جميل صليبا، معجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان،1979، ص577.

[3]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص998.

هي تأمل محض أو أحلام أو أفكار وهمية خيالية[4]

[4]- هربارت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004، ص197.

2/_ المنهج الوضعي عند اوغست كونت:

إن كل مذهب فلسفي مهما بدا جديدا فإنّه يتصل بالمذاهب التي سبقته، ويترتب عليه بطريقة مباشرة، هذا هو حال الفلسفة الوضعية عند كونت التي لم تنحدر من أصل واحد[1]، بل ترتبط بالتيار العام للفكر الحديث، ويمكننا هذا الرجوع إلى فرنسيس بيكون(1561-1626) أول من نستطيع أن نصفه بأنه وضعي بدون تحفظات، حتى أنه قيل عنه" أنّه أول فيلسوف وضعي بالمعنى الشامل الدقيق"، وهذا التجاه التجريبي المنطقي ورفضه للتفكير القبلي من أجل الكشف عن أسرار الكون[2]. بحيث أطلق صفة وضعي على الحقائق الأولية التي يجب تقبلها إيمانا بصدق الخبرة، ثم أصبحت كلمة وضعي تطلق على منهج العلوّ الطبيعية نظرا لاعتمادها على الملاحظة واستخدامها للتجربة، ويقول بيكون في هذا الصدد: " الإنسان هو الموكل بالطبيعة والمفسر لها، وهو بهذه الصفة لا يملك أن يفعل أو يفهم إلا بالقدر الذي تتيحه له ملاحظته التي قام بها لنظام الطبيعة"[3].

كما أطلق الفيلسوف الفرنسي سان سيمون (1760-1825) كلمة وضعي على العلوم الخاضعة للملاحظة والتحليل والتجريب في كتابه "مقال في علوم الإنسان" في عام 1813، وذلك تمييزا لها عن العلوم التي أطلق عليها اسم العلوم الظنية، إن الفكر الوضعي مع سان سيمون كان على درجة من الوضوح بحيث لا نجد اختلافا في التحليل وأسلوب التفكير بينه وبين كونت إذ أنّه يشاطره جملة من الأفكار الأساسية التي طورها في عمله الموسوم "خطة الأعمال العلمية والضرورية لإعادة تنظيم المجتمع" والتي يعتبرها استاذه تعبيرا حقيقيا لأفكاره المتعلقة بإعادة بناء المجتمع، وهنا يقول كونت: " من المؤكد أنني أدين فكريا لسان سيمون

1- Contecor Georges, la positivisme, Librairie Paule, Paris, p.127.

2- علا مصطفى أنور، التفسير في العلوم الاجتماعية- دراسة في فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988، ص ص114-115.

3- فرنسيس بيكون، الأورجانون الجديد، إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص 1.

بالفضل العظيم...فقد أسهم إسهاما قويا في الأخذ بيدي إلى الاتجاه الفلسفي الذي بلورته اليوم بوضوح وسوف انتهجه طيلة حياتي بدون تردد"[1]. كما يشاطره في فكرة أن التفكير الديني الذي ساد في المجتمعات ما قبل العلمية، حان الوقت لتجاوزه إلى مرحلة وضعية فلا مبرر للاحتفاظ بالتجريدات والبراهين الميتافيزيقية، فالتحوّل من التفكير اللاهوتي إلى التفكير العلمي الانساني، أمر واقعي يتفق مع السير العام لتقدم العقل الانساني. لكن سان سيمون لا يقف عند هذا الحد في تبرير قيام التفكير الوضعي بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فهذا التحول ليس ظاهرة تاريخية فحسب يعبر عن مراحل التي قطعها العقل الانساني، بل "إنّ الثورة العقلية تعتبر تحولا يستجيب للثورة المعاصرة"[2].

ومنه، فالكون –حسب سان سيمون– يجب أن يخضع لقوانين تجريبية علمية، وأنه لابدّ من استخدام المنهج العلمي في العلوم الإنسانية شأنها شأن العلوم الرياضية، ولا بدّ أن يكون الاستدلال فيها مبنيا على الواقع التي تلاحظ وتناقش بدلا من أن تتبع منهج العلوم التأملية التي تردّ كل الوقائع إلى الاستدلال العقلي، ويرى أن الفلك والكيمياء، والفيزياء قد قامت على هذا الأساس الوضعي، وحان الوقت الذي تنظم فيه الفلسفة والعلوم الاجتماعية إلى هذه العلوم الخاصة، وتصبح من هذه الوضعية المبدأ النهائي والحاسم لفلسفته. وهكذا وضع علم الإنسان على نمط العلم الطبيعي وأن يعامل المجتمع كالطبيعة[3].

أما في القرن التاسع عشر ومع أوجست كونت بالذات لم يعد طرفا في الصراع بين الأطراف التي تشاركه في تسيير قطاعات متعددة من المؤسسات الاجتماعية والتي تعمل على توجيه أساليب التفكير كما كان الأمر من قبل، فالذي يميّز هذه المرحلة عن سابقتها أنها أصبحت نظاما عاما للتصورات تهدف إلى دراسة كل الظواهر الإنسانية دراسة علمية، وهي تسعى أيضا إلى ايجاد انسجام داخلي وتصور وضعي موحد للعالم على معطيات

---

[1]– Comte Auguste, Cours de philosophie positive, Collection, Grainier, Tome 1, Paris, Introduction.

[2]– محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1992، ص44.

[3]– هربرت ماركوز، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية للكتاب، 1979، ص 304.

التجربة وحدها مع إقصاء كامل لكل العناصر الميتافيزيقية، والتأملية، واللاهوتية في التفكير، ويهدف إلى التفكير العلمي إلى اكتشاف القوانين التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية في نشأتها وتطورها.

لذا، تقوم الوضعية عند كونت على عدة معاني أهمها:

1- تدل على الواقعي في مقابل الوهمي، من هذه الزاوية، تتناسب تماما مع العقل الفلسفي الجديد، المتسم بثبات تركيزه على الأبحاث التي يمكن أن تبلغها حقا.

2-يشير هذا المصطلح الأساسي إلى تناقض النافع والنافل، فهو يذكر في الفلسفة، بالاتجاه الضروري لكل تنظيراتنا السليمة لأجل التحسين المتواصل لشرطنا العقلي والجماعي الحقيقي، بدلا من الإرضاء الفارغ لفضول عقيم.

3- تستعمل كلمة وضعي لإبراز التقابل بين اليقين وعدم اليقين، وهنا تكمن قدرة الفلسفة الوضعية على تكوين الثقة الروحية للفرد لكي تبعده عن شكوكه ونقاشاته اللامتناهية[1].

4-إن المعنى الرابع المألوف ويتعلق بمقابلة الدقيق مع الغامض، فالفلسفة الوضعية تعلمنا الدقة أما الفلسفات القديمة كاللاهوتية والميتافيزيقية فإنها تؤدي إلى الآراء الغامضة، وهنا يقول كونت: " مادام الذهن الإنساني خاضع لنضج قانون طبيعي فليس هناك من سبيل لإرجاع إلى الأعمال القديمة المضطربة وهي التي أصبحت اليوم ولحسن الخط مستحيلة"[2].

على الرغم من هذه المعاني المختلفة للوضعية إلا أنّنا لا نجد تعريفا موحد المعنى في مؤلفات كونت، لهذا نقول أنها تطلق على مجمل مذاهب أوغست كونت، كما هي معروضة أساسا في محاضرات الفلسفة الوضعية (1830-1842)، خطاب حول العقل الوضعي(1814)، البيان الوضعاني(1852)، نظام السياسة الوضعية(1852-1854).

كما يطلق أيضا اسم وضعانية على المذاهب المتعلقة بعقيدة أوغست كونت أو المشابهة لها، ولو بكيفية بعيدة جدا، أحيانا، والتي تجمعها أطروحات مشتركة تقول إن معرفة الوقائع هي

---

[1]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص ص998-999.

[2]- Comte Auguste, Cours de philosophie positive, op.cit., pp 38-39.

المثمرة وحدها، وإن العلوم الاختبارية هي التي تمدنا بنموذج اليقين، وإن العقل البشري لا يجانب، في الفلسفة كما في العلم[1].

فقد اختار كونت الصيغة "الفلسفة الوضعية" لأنها تدل على الطريقة التي يتعامل معها الذهن الإنساني، ويحاول في خاتمة قوله تقريب الصيغ من بعضها البعض ليبين في أي نقاط تبتعد الفلسفة الوضعية عن الفلسفة الطبيعية والفلسفة العلمية، فيبين أن الصيغة "فلسفة وضعية" تحيل إلى معنى أوسع من "فلسفة طبيعية" بالمعنى الصارم، وذلك في نطاق ما يطبق ليس فقط على الظواهر الطبيعية لكن كذلك على الظواهر الاجتماع.

وهكذا، لقد قامت الوضعية في أساسها على تأكيدها وحدة المنهج في التفكير بغض النظر عن الموضوع المدروس، وهي حينما تفعل ذلك تسدّ الطريق أمام ذلك الانفصام الذي كان يعاني منه جيل ما قبل الوضعية الذي كان يستخدم المنهج الوضعي في معالجة العلوم الطبيعية فقط، إنّه كلما تقدم الإنسان في الدراسة الوضعية للظواهر ترك بالتدريج التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية، كما يقلع عن البحث في الأسباب التي لم نعد في حاجة إلى افتراضها لأن فكرتنا عن الظواهر الاجتماعية اصبحت وضعية تماما إذ يكفي أن نتصور أن هذه الظواهر خاضعة لبعض القوانين وستختفي طريقة التفكير الميتافيزيقي عندما نعتاد تصور جميع القوانين وستختفي طريقة التفكير الميتافيزيقي عندما نعتاد تصور جميع أنواع الظواهر على غرار الظواهر السابقة، إن من أهداف الوضعية هي جعل منهجها منهجا كليا شاملا لكل ظواهر الكون أي وحدة المعرفة الوضعية.

" لأننا ما دمنا نفكر بمنطق وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في العلوم الطبيعية غير العضوية، يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير"[2].

---

[1] – أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص ص1001–1002.

[2] Raymond Aron, les étapes de la pensée sociologique, Edition Gallimard, 1976, p.87-88.

ولقد نظر أوغسن كونت إلى علم الاجتماع نظرته للفيزياء، ففي نظرة القوانين الطبيعية تحدد تطور الجنس البشري مثلما يحدّد قانون الطبيعة سقوط الحجر. وركز كونت على أن يصطنع في دراسته الوقائع الاجتماعية المنهج الوضعي المستخدم في دراسة وقائع العلم الطبيعي، وأن يطرح آراؤه المنهجية في إطار تصوراته عن الفلسفة الوضعية التي اعتمدت على المكونات العامة للمنهج العلمي المتمثلة في : الملاحظة، التجربة، المقارنة، والمنهج التاريخي وانتهى كونت من خلال دراساته في علم الاجتماع إلى جملة من القوانين أهمها: قانون المراحل الثلاثة (المرحلة اللاهوتية، المرحلة الميتافيزيقية، المرحلة الوضعية) وقانون التقدم[1].

[1] بورنان خيرة، العلوم الإنسانية ومناهج البحث في الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة، دراسات وأبحاث في الفلسفة الغربية الحديثة و المعاصرة، دار صبحي للطباعة والنشر الجزائر، ط1، 2014، ص